هربت الطيور من أقفاصها، وحلق طير بني ذو ريش كثيف فوق المنازل المتقاربة.... رصد دخان أبيض يخرج من تنور طين في فناء منزل شرقي تقف أمامه امرأة جنوبية بفوطة سوداء على رأسها، تضرب العجين وتناقله بين يدها بطريقة سحرية ثم تلصقه على جدار التنور... في نهاية الشارع يسارع الرجل العجوز الخطى ويرفع "دشداشته" عن الأرض وهو يوازن "ماعون القيمر" بين يديه خشية أن يسقط... انه يوم الجمعة في بغداد ، تكاد تخلو الشوارع من المارة والسيارات في ساعات الصباح الأولى، معظم سكان العاصمة يطلقون العنان للنوم الطويل والاستيقاظ يكون دون شروط، فيما آخرون يستقبلون اليوم من ساعات الفجر لأنه يوم الرزق الواسع .... رجل متوسط العمر يحمل كيس قماش يضعه على كتفه ويتجه به إلى سوق هرج الذي يشهد زحاما في يوم العطلة.

□ بغداد/ وائل نعمة

بغداد المزدحمة.. تصل عملك خلال عشر دقائق !

الجمعة في العاصمة: سمك مسكوف.. أسواق متخصصة وشوارع خالية

يلفت انتباهه على جانب الطريق أصحاب الأفران الذين يستيقظون مبكرا أيضا في أيام الجمع ليصطف مقابلهم طابور من الرجال والنساء المستيقظين قبل أطفالهم من اجل خبز حار ، "اترك أهلي نائمين وشخيرهم يصل الى باب البيت"، ويضيف حمودي صانع الخباز في منطقة المشتل "الجمعة نفتح المخبز باكرا وارتباطنا يكون مع أم القيمر".

قيمر الحلة

ويعلو صوت بائعة "القيمر" ..."قيمر الحلة ..قيمر" الذي له حكاية مع الجمعة : حيث يعتبر قيمر الحلة من أفضل أنواع القيمر المنتج حتى أصبح يضرب به المثل لجودته وطعمه اللذيذ، والقيمر مادة غذائية جيدة ويعد إفطار الصباح الشهي خاصة مع العسل، ويستخدم القيمر مضافاً إلى بعض الحلويات مثل كاهي بالقيمر والكنافة والبقلاوة بالقيمر وغيرها، وتنتشر بائعات القيمر في المحلات الشعبية والقديمة في بغداد وهن يحملن أطباق القيمر بطريقة مميزة على الرأس فهي تدور كعارضة أزياء دون أن تسقطه من على رأسها ، و كانت بائعات القيمر قبل سنين يستخدمن الأواني الفخارية أما اليوم فالأواني الورقية والبلاستيكية هي السائدة.

تقول "أم يعرب" بائعة قيمر: سعره يتجاوز سعر اللحوم ...فالكيلو (الزين بـ ٢٠ ألف دينار) . وتضيف " استيقظ من الفجر وأدور في بعض الأزقة مستخدمة صوتي ...قيمر الحلة ... حلة ...صوتي رأس مالي"! ويضحك أبو سحر الرجل الخمسيني المقرفص أمام "صينية القيمر" وهو يرفع الغطاء المصنوع من "التول" حول صوت أم يعرب الجهوري وهو يقول "لولا صوتك لكنت الآن في الفراش" ، يتحدث الرجل بعد أن طلب من ام يعرب أن تضع له ربع كيلو في إناء بلاستيكي، " في كل يوم جمعة نأكل القيمر من الصباح ...انه يوم عطلة ويجب أن يكون مميزا".

كما تستعد بعض النسوة ومنذ الساعات الأولى من صباح "الجمعة" لإرسال السمك إلى صاحب الفرن ، الذي يمتلئ فرنه بأنواع السمك "الكطان والبني". ومازال البغداديون محافظين على طريقة "السكف" منذ عشرات السنين.

ولم تتبدل تلك العادات برغم التقنيات الحديثة التي دخلت على المطبخ العراقي، إذ بإمكانك أن تثبت (وتدين) مفردها (وتد) في الأرض ثم تعلق عليهما السمكة وتشعل تحتها الحطب وبعد نضوج السمكة تتناولها من دون إضافات أخرى، وفي الوقت الحالي كثيرا ما يشوى سمك (الكارب) بطريقة السقف لرخص سعره ولمذاقه الذي ترغبه اغلب العوائل العراقية، بحسب من يمارس هذه المهنة.

باستثناء يوم الجمعة

"سلام" الرجل الذي يرفع كيس القماش من على الأرض يجد صعوبة في حشر أغراضه في داخل سيارة "الكيا" ، ويتململ الركاب من صعوده وهو يحمل أغراضا كثيرة ، باستثناء يوم الجمعة ،"السائق يقدم النصيحة لاختيار أفضل مقعد لي ولإغراضي ...إنها بركات يوم الجمعة"! في العادة لا يترك سائقو "الكيا" سياراتهم في أثناء صعود الركاب ، بينما في أيام الجمعة يتأخر ملؤها لأكثر من نصف ساعة ، يشير علاوي السائق إلى أن الركاب في يوم الجمعة قليلون جدا لاسيما في الصباح ، ويضيف " أبقى أتحدث مع زملائي في الكراج حتى اسمع صوت منبه السيارة يقوم بإطلاقه احد الركاب بعد أن تملأ بالكامل ...الجمعة مملة".

مترو بغداد

يتحدث سلام عن "مترو" بغداد السريع الذي يعمل في يوم الجمعة فقط ! الأنباء التي نسمعها عن مترو بغداد لا تسر ، فمرة يقول المسؤولون عن المشروع بان الخطط الأساسية قد وضعت والمبالغ المالية رصدت ، وتارة أخرى يقولون انه توقف لأسباب فنية . هذا وكانت أمانة بغداد قد اختارت سبع شركات عالمية من جنسيات مختلفة، منها أميركية وروسية وألمانية وفرنسية وكورية جنوبية لتقديم العطاءات لتنفيذ مشروع مترو بغداد، من أصل ٢٨ شركة أبدت استعدادها للقيام بالمشروع، واعتبرت وزارة النقل المشروع بأنه يمثل نقلة كبيرة في إعادة إعمار العاصمة من خلال إدخال التكنولوجيا الحديثة في وسائل نقل المواطنين. وستبلغ كلفة مشروع مترو بغداد الإجمالية قرابة ثلاثة مليارات دولار وسينفذ بمسارين مختلفين. سيبلغ طول المسار الأول ١٨ كم ويضم ٢٠ محطة ويبدأ من نهاية مدينة الصدر وصولا إلى المحطة الرئيسة المشتركة في ساحة الوثبة، ثم يسير تحت شارع الخلفاء وصولاً إلى شارع الإمام الأعظم، انتهاء بساحة عنتر في الأعظمية حيث سيمر بأغلب أحياء بغداد الشمالية الشرقية. ويبلغ طول المسار الثاني للمترو ٢١ كم ويضم ٢١ محطة ستنطلق من منطقة المسبح مروراً بشارع السعدون عبر ساحة الخلاني ليصل إلى ساحة الوثبة.

المتنبي يعود الى تألقه

ابو نؤاس يزهو بالسمك

ويتجه بعدها إلى منطقة المنصور عن طريق شارع دمشق وصولا إلى تقاطع معرض بغداد الدولي. ثم يتفرع إلى فرعين؛ أحدهما باتجاه المنصور ويصل إلى منطقة الوشاش، والآخر باتجاه منطقة البياع عبر شارع الجنوب وينتهي عند تقاطع الشارقة. ولكن إلى الآن لم نرَ شيئا على ارض الواقع ، فعن أي مترو يتحدث سلام ؟! يقول الرجل "ما تفسيركم للسرعة التي أصل بها إلى الباب الشرقي في يوم الجمعة... إنها لا تتجاوز العشر دقائق ، بينما في الأيام الأخرى تستغرق ساعة ونصف الساعة ...انه مترو يوم الجمعة"! يشتكي معظم سكان العاصمة من الزحامات الأسطورية في الشوارع ، ويصل الكثير من الموظفين الى أعمالهم بعد بداية الدوام الرسمي ويضطرون للتوسل بصاحب سجل الحضور كي يفتحه من جديد، فيما يتمتع العاملون في يوم الجمعة بجو هادئ من أصوات منبهات العجلات وضجيج صافرات إنذار الشرطة ، فالشوارع فارغة ومفتوحة بشكل لا يصدق ، وتجتاز بعض التقاطعات التي تقتل فيها الساعات بدم بارد من الانتظار بثوان ، حتى شرطي المرور يأخذ "كسلة" بينما الإشارات الضوئية تتلون دون أن يعير لها السائقون اهتماما "يا بركات الجمعة"!

> تستعد بعض النسوة ومنذ الساعات الأولى من صباح "الجمعة" لإرسال السمك إلى صاحب الفرن ، الذي يمتلئ فرنه بأنواع السمك "الكطان والبني".

> كانت أمانة بغداد قد اختارت سبع شركات عالمية من جنسيات مختلفة، منها أميركية وروسية وألمانية وفرنسية وكورية جنوبية لتقديم العطاءات لتنفيذ مشروع مترو بغداد، من أصل ٢٨ شركة أبدت استعدادها للقيام بالمشروع

> يضم سوق هرج المئات من البائعين الذين يعرضون بضائعهم على الأرصفة في بسطيات وأهم البضائع هي الساعات والملابس وأجهزة الهاتف النقال والملابس الرياضة والألعاب الالكترونية وألعاب الأطفال وغيرها.

الشابندر يوم الجمعة

بالمقابل، تتضاعف أعداد مفارز شرطة المرور في يوم الجمعة ، ويتفاجأ سائقو السيارات من وجودها في الشوارع والتقاطعات ويعتقد البعض بأنهم يستثمرون خلو الشارع من السيارات ليمارسوا عملهم ، حيث يقول حامد عبد الله سائق سيارة أجرة "خير عملت مفارز الشرطة، حيث أنها تكشف من وجودها في يوم الجمعة، لأنها لو فعلت ذلك بالأيام الاعتيادية ستصبح الشوارع مزدحمة بشكل اكبر لاسيما مع تزاحم السيارات في السيطرات الأمنية".

هرج الأسواق!

تستعد أطراف أخرى للنهوض مبكرا من الفراش في يوم الجمعة، أنهم المتظاهرون في ساحة التحرير ، حيث تشهد ساحة التحرير ومنذ ٢٤ شباط من العام الماضي تظاهرات بدأت كبيرة وحاشدة ثم تقلصت أعدادها بعد ما أسماه الناشطون بسياسة شق الصفوف التي استخدمتها الجهات المعارضة للتظاهرات ، قرروا الشباب أن تكون الساحة مركز انطلاق تظاهرات يوم الجمعة للمطالبة بالإصلاح ، والتي فشلت حتى الآن بتحقيق الأمن ومحاربة الفساد وتوفير أبسط الخدمات لأبناء شعبها. جوبهت التظاهرات بعمليات قمع دموية تعهدت بعدها الحكومة بتحسين الأحوال خلال مئة يوم، وبرغم ذلك استمرت التظاهرات خلال الأسابيع اللاحقة لكن بوتيرة أهدأ وبزخم أقل، حتى جاءت جمعة الحساب بعد انتهاء المدة دون تحسن الأوضاع، والتي كان متوقعاً أن تكون جمعة محاسبة للحكومة على فشلها في تحسين الأحوال، فما كان من الحكومة سوى أن أخرجت بالمقابل مسيرات مؤيدة لها تطلب القصاص من قتلة حادثة عرس الدجيل التي حدثت عام ٢٠٠٦، أي قبل ٥ سنوات! وترفع شعارات لا علاقة لها بالموضوع – على حد قول بعض الناشطين – المهم، أنهم ما زالوا يحافظون على الموعد الصباحي للتظاهر، فيما يضجر سلام صاحب كيس القماش ومعه عدد من محبي سوق الغزل حين يجدون القوات الأمنية وقد طوقت المنطقة القريبة من ساحة التحرير ومنعت جميع السيارات من الوصول الى الساحة باستثناء السائرين .أقفاص الطيور والكلاب تسير الى "الغزل" ومعهم سلام وقد أتعبته أغراضه التي يسعى بها للوصول الى سوق هرج ، ويقع السوق في منطقة الباب الشرقي بجوار ساحة التحرير حيث المكان الذي يختاره المتظاهرون.

ويضم السوق المئات من البائعين الذين يعرضون بضائعهم على الأرصفة في بسطيات وأهم البضائع هي الساعات والملابس وأجهزة الهاتف النقال والملابس الرياضة والألعاب الالكترونية وألعاب الأطفال وغيرها. يرى جاسم غالب صاحب بسطية في سوق هرج لبيع الملابس المستعملة التي تعرف بـ "الباله" أن "الزبائن خف توافدهم على المكان بسبب قيام القوات الأمنية بقطع الطريق أمام السيارات. وسوق هرج هو الحلقة الأولى من سلسلة أسواق بغداد التي تنشط في يوم الجمعة، سوق "هرج" أو كما يحبب البعض تسميته بسوق "الباله" وهي سوق متخصصة ببيع الملابس المستعملة القادمة من خارج العراق، وتتميز أسعار هذه الملابس بالرخص قياساً بالألبسة الجديدة. يشير سعيد محمد ١٨ عاما الى انه يواظب في كل يوم جمعة على المجيء إلى السوق لشراء بعض الملابس، ويضيف أن "أسعار الملابس هنا أرخص بكثير عن الملابس الجديدة التي عادة تكون غير جيدة ومن مناشئ سيئة"، مشيراً الى أن "السوق تزدحم كل يوم جمعة وقد لا تجد مكاناً لك فيها". كما أن سوق الباله يضم العديد من المحال الخاصة ببيع وتصليح الأجهزة الالكترونية والتجهيزات الرياضية، فضلاً عن المطاعم وبسطيات بيع العصائر التي تخلق من المكان جوا رائعا . وانتشرت أسواق الباله وهي الملابس المستعملة خلال تسعينات القرن الماضي بعد فرض الأمم المتحدة حصاراً اقتصادياً على العراق بعد غزو الكويت ما ادى الى تراجع مستوى المعيشة للفرد العراقي لذا بدا مضطراً لاقتناء الملابس المستعملة الرخيصة بدل الجديدة وفيما تنتشر أسواق الباله في عدد من مناطق بغداد إلا أن سوق "هرج" يمثل مركزاً رئيسياً لها.

غزل الطيور !

أما الحلقة الثانية من أسواق الجمعة فهو "الغزل" ويعتبر من أشهر الأسواق المحلية التي تباع فيها مختلف أنواع الحيوانات. فهي على عكس غيرها من الأسواق الأخرى تعطل في معظم أيام الأسبوع وتنتعش بتوافد روادها يوم الجمعة فقط. في هذا المكان لا يوجد مجال للمشي بأريحية، فممرات المشاة ضيقة ومحدودة بعد أن احتلت أقفاص الحيوانات مساحة واسعة منها وتمتد هذه الممرات بين مسجد الخلاني وجامع الخلفاء في شارع الجمهورية الواقع على جانب الرصافة من بغداد. ويؤكد حيدر ماجد بائع "عصافير" في السوق أن عددا كبيرا من الناس يتوافدون على هذه السوق في يوم الجمعة منذ زمن بعيد لشراء أو بيع أو تبادل الحيوانات، كما تعد السوق مركزاً لتوافد السكان من مختلف المحافظات العراقية.

عشاق القراءة

وللجمعة سوق ثالث ، انه المتنبي الشهير ببيع الكتب القديمة والحديثة والتراثية ويسبق شارع "المتنبي شهرته ليست داخل العراق وحسب بل حتى خارجه في الدول العربية والإقليمية ، وما يميز هذه السوق ليس فقط اختصاصه ببيع الكتب فحسب بل يعتبر كرنفالاً ثقافياً أسبوعياً بسبب رواده الذين هم في الغالب من طبقة المثقفين والأدباء والكتاب والشعراء ويمثل الشارع فرصة مناسبة للتلاقي في ما بينهم والجلوس في "مقهى الشابندر" لسماع آخر أخبار الفن والأدباء ونتاجاتهم الفنية أو في الأعلى حيث البيت الثقافي لمؤسسة "المدى" الذي يستذكر في كل جمعة شخصيات فنية وأدبية وسياسية. ويعتبر شارع المتنبي الشريان الثقافي لأهالي بغداد حيث تزدهر فيه تجارة الكتب بمختلف أنواعها ومجالاتها وينشط عادة في يوم الجمعة. هادي رحيم صاحب بسطة لبيع الكتب في شارع المتنبي يقول: انه يمارس هذه المهنة ليس لأجل الرزق فحسب بل من اجل المتعة وتبادل الأفكار والكتب الجديدة وآخر نتاجات المؤلفين العراقيين والعرب والأجانب"، مضيفا انه "يبيع مجموعة الكتب التي يمتلكها ويشتري بثمنها كتبا أخرى حسب اهتمامه أو اهتمام رواد السوق الذين عادة ما يأتون باحثين عن كتب معينة دون غيرها".

وشهد شارع المتنبي مؤخراً حملة إعمار وترميم كبيرة منحت السوق جمالية أخرى، إذ قامت أمانة بغداد بترميم واجهات المكاتب بشكل موحد، فيما قامت بتبليط أرضية الشارع بالحجر وليس بالإسفلت، فيما تمنع السيارات من المرور في الشارع ويكون السير فيه راجلاً خوفاً من تكرار الهجوم المسلح الذي تعرض له عام (٢٠٠٨) بسيارة ملغمة أدى الى تضرر الشارع بشكل كبير.